السخرية في المعادل الموضوع في شعر أحمد مطر

نهـــى رفعـت سعـد محمـــــد (*)

مقدمة:

السخرية من أصعب وأرقى الأدوات التي يستخدمها الأديب لما تحتاج من فكر وذكاء وتلاعب بمقاييس الأشياء تضخيمًا وتصغيرًا فتقدم النقد اللاذع في جو من الفكاهة والإمتاع "فالسخرية قديمة قدم الإنسان لأنها تكون ترويحًا عن النفس، أو تسرية عن القلب أو استنكارًا لما يقع واستهزاءً وتندرًا بالخصم"(١).

السخرية في اللغة :

من مادة (س خ ر)

سَخِرَ منه وبه سَخْرًا وسَخَرًا وسُخْرًا بالضم وسُخْرَةً وسِخْرِيًا وسُخْرِيًا وسُخْرِيَةً: هزئ به. والتسخي: التذليل، سخرته: أي قهرته وذللته، وسخره تسخيرا: كلفه عملا بلا أجرة .(٢)

(*) هذا البحث مستل من رسالة الماجستير الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [المعادل الموضوعي في شعر أحمد مطر "دراسة نقدية"]، وتحت إشراف أ.د. أحمد يوسف محمد خليفة (رحمه الله) – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. سليمان محمد سليمان – كلية الآداب– جامعة سوهاج & أ.د. نجوان كمال السيد – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) السيد عبد الحليم سليمان، السخرية في أدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر، طرابلس ط١، ص٦٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٣٥٢/٤، مادة (سخر).

السخرية في الاصطلاح :

السخرية هي "استخدام الكلمات بمعنى عكس معناها الصريح قصدًا للفكاهة أو الهجاء، ومن هذا القبيل وصْف المتنبي لكافور الإخشيدي بأنه (أبو البيضاء) لسواد كافور.

ويعد من أساليب السخرية ما جاء في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام: وقد سأله كفّار قومه عمن حطم أصنامهم ﴿ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فهو قد جاراهم في اعتقادهم بألوهية أصنامهم، ونسب إلى كبيرهم فعل التحطيم، وطلب منهم أن يسألوهم، إمعانًا في السخرية منهم والاستهزاء بهم".(٣)

وقيل أيضا في تعريف السخرية أنها :(طريقة من طرق التعبير ،يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة وهي صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء ،التي فطن إليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة ،وأحسن عرضها، تكون حينئذ في يده سلاحا مميتا.(٤)

وقال آخر: (هي طريقة في التهكم المرير، والتندر أو الهجاء الذي يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان، وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا).(٥)

---

(٣) مجمع اللغة العربية، معجم مصطلحات الأدب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج١، ص٨٦.

(٤) نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار التوفيقية، القاهرة، ١٩٧٨، ط١، ص ١٣.

(٥) المرجع السابق، ص ١٤.

وهناك العديد من الأسباب التي تضطر الأديب للجوء إلى السخرية منها:

١ــ الساخر هو ذلك الشخص المتعالي بنفسه عن المجتمع الذي يضحك منه أو من أحد أفراده لأسباب ترجع إلى حقده على المجتمع ،لما يشعر به من نقص خلقي أو حرمان ،فينتقد بما منحة الله من موهبة السخرية الأفراد أو المجتمع لإخفاء هذا النقص.

٢ــ الانتقام ،الذي يرجع إلى عداوة بينه وبين الشخص الذي ينتقده لسبب من الأسباب التي تنجم عن الاحتكاك الدائم بين الناس .

٣ــ قد تتولد عن تعالي الشخص الساخر نفسه ،لشعوره بالغرور.

٤ــ قد ترجع إلى تعالي شخص ناقص لا يُحس ما فيه من نقص، فيضطر الأديب الساخر أن يرده إلى صوابه أو إلى منطقه ،ويحاول حينذاك أن يبحث عن عيوبه فيضخمها ويكبرها ويجعل منها بفنه أداة للضحك.(٦)

وأعتقد أن السبب الأخير هو ما دفع أحمد مطر إلى السخرية، فقد اتخذ أحمد مطر السخرية أداته الأولى في نقده للواقع وهجائه اللاذع لما يراه من تناقضات وتخاذل في المجتمع العربي الذي كان عاملًا أساسيًّا من العوامل التي دفعته لاتخاذ السخرية أسلوبًا خاصًا له.

من هذه القصائد الساخرة "قلة أدب" حيث يقول:

(٦) المرجع السابق، ص ١٨.

قرأت في القرآن:

"تبت يدا أبي لهب"

فأعلنت وسائل الإذعان

"أن السكوت من ذهب"

أحببت فقري لم أزل أتلو:

"وتب"

ما أغنى عنه ماله وما كسب

فصودرت حنجرتي

بجرم قله الأدب

وصودر القرآن

لأنه حرضني على الشغب(٧) .

عبر الشاعر في هذه الأبيات بتهكم شديد واستنكار عن مدى قمع بعض السلطات لحرية الإعلام وإبداء الرأي متخذين من المقولة الشهيرة (السكوت من ذهب) شعارًا لهم في الإعلام الذي سماه الشاعر وسائل الإذعان مشيرًا إلى إعلام الفاسدين، وفي اختيار لفظ الإذعان سخريةٌ أيضًا من ذلك الإعلام المنبطح غير المهني الممجد للعدو، كما اتخذ الشاعر هذه الآيات من سورة المسد دون غيرها معادلًا موضوعيًّا ليجعلها للأصوات الجريئة التي تنتقد الحاكم مستترًا في ذلك بشخصية أبي لهب، لكن لسوء

(٧) أحمد مطر، لافتات، ص٢٧.

حظه لم يفت القائمين على تلك الوسائل من سلطة متجبرة – في نظر الشاعر – أن تفهم تلك الإشارة وتؤولها التأويل المستحق، فيلقى عقوبته، وتبرز السخرية أيضًا في مصادرة حنجرته وإمعانًا في سخريته من قصور تفكير القائمين على تلك الوسائل وسلطتهم المتجبرة يجعلهم مصادرين للقرآن أيضًا لأنه – في نظرهم – يحرضه على الشغب، جل القرآن عن ذلك، وذلك قمة الاستهزاء والتهكم لأن القرآن محفوظ بوعد الله لا يستطيع أحد المساس به.

وفي نص حكاية عباس يقول:

عبّاس وراء المتراس يقظٌ..

منتبهٌ..

حسَّاس..

منذ سنين الفتح.. يلمّعُ سيفه

ويلمّعُ شاربهُ أيضًا

منتظرًا محتضنًا دفَّهْ !(٨)

"عباس" اسمٌ له دلالة على الشجاعة والقوة، وأيضًا التجهم والغضب، فمن معاني الكلمة "الأسد" ومنه قول الشاعر:

عباس عباسٌ إذا احتدم الوغى والفضلُ فضلٌ والربيع ربيعُ

وجعْلُ عباس (ذلك الرمز القوي الشجاع) مفتتحًا للنص يوحي للقارئ

(٨) أحمد مطر، الأعمال الكاملة (لافتات)، ص ٣٦.

بشخصية عربية حرة أبية، وهو أيضًا متحفّز خلف متراسه كامنٌ لأعدائه في أعلى درجات اليقظة والانتباه، يلمع السيف ويدق دفوف الحرب معلنًا النفير.

ثم تأتي الصدمةُ والسخرية رغم كل ذلك التحفز والنفير:

بلع السارق ضفة

اللص سطا على حمى عباس واستطاع السطو على ضفة كاملة منه، رغم استعداده وسيفه المصقول ومتاريسه الحصينة!

ترى كيف سيرد عباس على ذلك الهجوم المباغت؟ سيجد القارئ ذلك الرد في سخرية الشاعر:

قلَّبَ عباس القرطاس

ضرب الأخماس لأسداس

بقيتْ ضفَّة

ورد فعل عباس (المعادل الموضوعي للعربي الشجاع الأبي) جاء على عكس كل توقع للقارئ المتحفز للثأر والرد والانتقام وصد ذلك الغازي المعتدي، حيث اكتفى بحساب خسائره وقنع بضفته التي بقيت ناسيًا أمر أرضه التي اغتصبها عدوه، بل أمعن الشاعر في السخرية صادمًا القارئ بردود أفعال عباس:

لملمَ عباس ذخيرته والمتراس

ومضى يصقل سيفه!

ثم ينتقل لمستوى أعمق في السخرية، معتمدًا على التناقض والمفارقة بين واقع عباس وما يجب أن يكون عليه:

عبر اللص إليه.. وحلّ ببيته

أصبح ضيفه

قدَّم عبّاس له القهوة

ومضى يصقلُ سيفه!

لم يكتفِ اللص بما سطا عليه من أرض عباس ووطنه، بل زاد إمعانًا في إذلال عباس ووصل إلى بيته، والسخرية في رد فعل عبّاس الذي يتخذ المعتديَ عليه في عقر داره ضيفًا له، وزاد استجابة للإذلال بأن قدّم القهوة لذلك العدو (الضيف!).

ويزيدُ الضيفُ عدوانًا:

صرخت زوجة عباس

ضيفك راودني عباس

أبناؤك قتلى عباس

قم أنقذني يا عباس(٩).

وهنا يجدُ القارئ وضعًا لا يمكن الصبرُ عليه، من قِبلِ أي حرٍّ أبيٍّ، فعدو عبّاس الذي اتخذه عباس ضيفًا، تجاوز كل حدّ في الاعتداء، قتل الأبناء وراود الزوجة، بينما تستغيث بزوجها الشجاع البطل، فتأتي

(٩) أحمد مطر، الأعمال الكاملة(لافتات)، ص٣٧

السخرية في أقسى أشكالها وأعمقها:

عباس وراء المتراس

منتبهٌ لم يسمع شيئًا

زوجته تغتاب الناس!(١٠)

وهنا تكون السخرية وافية برسم صورة لحقيقة عباس (العربي الذي يظهر في صورة البطل بينما هو في أدنى درجات التخاذل والمذلة)، وهو يتعامى عن جرائم عدوه ويتغاضى عن بشائع عدوانه، فالزوجة المستغيثة الخائفة معادل موضوعي لكل الشعوب العربية المضطهدة بعدوان المعتدين من كل حدبٍ وصوب، ومع ذلك يتهمها عباس بأنها تثرثر مغتابة للناس غاضًا الطرف عن مأساتها.

ويكمل الشاعر سخريته من عباس وتخاذله:

صرخت زوجته: عباس

الضيف سيسرق نعجتنا

وهنا تستغيث الزوجة محذرةً عباس من نهب العدو لنعجته، والنعجة معادلٌ موضوعي لثروات الوطن المنهوبة، وهنا إشارة إلى شدة اجتراء العدو الضيف، وتأتي السخرية في رد فعل عباس:

عباس اليقظ الحسّاس

قلّب أوراق القرطاس

---

(١٠) أحمد مطر، الأعمال الكاملة(لافتات)، ص٣٧

ضرب الأخماس لأسداس:

أرسل برقية تهديد!(١١)

والسخرية هنا في رد فعله الصوري، فهو لم يكلف نفسه الدفاع عن ثروته أو القتال دونها بسيفه الذي يصقله من أول عمره دون أن يستخدمه، ولكنه اكتفى بإرسال برقية تهديد، لا شك أن العدو لن يقيم لها وزنًا.

ويختم أحمد مطر نصه بسخرية من صقلِ عباس لسيفه الذي هو معادل موضوعي لجيوش عظيمة العتاد والعدة، لا تدخلُ حروبًا دفاعًا عن مكتسباتها وحقوق شعوبها:

- فلمن تصقل سيفك يا عباس؟

ويرد عباس:

- لوقت الشدة

فتكون سخرية الشاعر البائسة اليائسة:

- اصقلْ سيفك يا عباس!

وفي نص (خطاب تاريخي) يسخر بمعادلات موضوعية جاعلاً من يسخر منهم في صور كائنات قذرة ــ في العرف العام ــ فيقول:

رأيتُ جُرذاً

يخطب اليوم عن النظافة

(١١) أحمد مطر، الأعمال الكاملة(لافتات)، ص ٣٧

وينذر الأوساخ بالعقاب

وحوله

يصفِّق الذباب!(١٢)

إن من يقرأ النص يدرك بعد قليل من التمعُّنٍ سخرية الكاتب من المسؤولين المتشدقين في أبواق الإعلام المتشدق بالفضيلة والنزاهة، وهم أبعد ما يكونون عنها، كذلك من يصفقون لهم من المنتفعين المنافقين وهم كذلك مشاركون في الفساد، والجميل هنا هو خلق تلك المفارقة السّاخرة، بجعل تلك الكائنات القذرة معادلات موضوعية للنزاهة والتعهد بالقضاء على الفساد، وتلك العبثية هي التي تعمّق الحسرة والحيرة في نفس القارئ.

وفي نص (مزايا وعيوب) سخرية لاذعة:

نبح الكلب بمسؤول شؤون العاملين:

سيدي، إني حزين

هاك.. خذ طالع ملفي

قذرٌ من تحت رجليّ إلى ما فوق كِتْفي

ليس عندي أي دين

لاهثٌ في كل حين

بارعٌ في الشمّ والنبح وعقر الغافلين

(١٢) أحمد مطر، الأعمال الكاملة (لافتات)، ص٣٠.

بطلٌ في سرعة العدو،

خبيرٌ في اقتفاء الهاربين

فلماذا يا ترى لم يقبلوني

في صفوف المخبرين؟! (١٣)

من بداية النص يجعل الشاعر الكلب معادلًا موضوعيًّا لذلك الفاسد المتسلِّق الذي يسعى لنيل حظوةٍ لدى مسؤول فاسدٍ آخر ليكون في وظيفة أو مركز فاسدٍ أيضًا، متسلحًا بمؤهلاته المجتمعة من أشكال الفساد المختلفة، إذ جعلها الشاعر في مواطن قذارة الكلب وأذاه وقوته، فهو ذو جسمٍ قذرٍ تمامًا، لا دين من خلاله يراقب ضميره، بارعٌ في أذى الناس وإلحاق الضرر بالمستضعفين الهاربين منهم، ومع هذا كله فهو غير مقبول فيما تقدّم له من وظيفة لدى ذلك المسؤول الفاسد، لتكون مفاجأة القارئ بما يلي تلك المؤهلات من رد المسؤول:

هتف المسؤول: لكن

فيك عيبان يسيئان إليهم

أنت يا هذا.. وفيّ وأمين(١٤)

فالمسؤول يرى أنّ هذه المؤهلات المتقدمة غير كافية ليستقيم فساد هذا الكلب لأن الكلب به خصلتان مرفوضتان تمامًا لدى الفاسدين، هما الوفاء والأمانة، إذ لا بد أن يكون الفساد مضاعفًا!

(١٣) أحمد مطر، الأعمال الكاملة(لافتات)، ٣٧٩.

(١٤) أحمد مطر، الأعمال الكاملة(لافتات)،كنوز للنشر، ص ٣٨٠.

إن نصوص السخرية الماضية خلقت في المتلقي أثرًا عظيمًا من خلال

عوامل عدة، يمكن إيجازها فيما يلي:

١ – المفارقة.

٢ – المبالغة في الوصف.

٣ – التأكيد.

٤– التنوع بين الخبر والإنشاء.

أولًا: المفارقة:

ففي نص (عبّاس) مثلًا نجد السخرية من خلال ذكر الشيء ونقيضه في أمور عدة، فعباس كما وصفه الشاعر: (يقظ، حسَّاس، منتبه)، بينما عباس كما فهمه القارئ من خلال سياق النص (متخاذل، جبان، متباهٍ، ذليل).

وفي نص (خطاب تاريخي) مفارقة بين ما يذيعه الفأر ويصفق له الذباب، وبين حقيقة هذه المعادلات الموضوعية.

يُفهمُ من ذلك أن الشاعر نجح في استخدام المفارقة لإظهار جماليات إبداعه في اختيار معادلاته الموضوعية، إذ تمكّن من إشغال ظاهرِ النص ببراعة بظاهر زائف، مع فتح المجال تمامًا للقارئ كي يفهم حقيقة تلك المظاهر الزائفة.

ثانيًا: المبالغة في الوصف:

ففي نص (قلة أدب) يسعى المتسلِّطون لمصادرة القرآن الكريم ــ جلّ كتاب الله عن ذلك ــ وفي تلك المبالغة، إظهار لشدة تسلُّط هؤلاء الفاسدين مع إظهار قصور تفكيرهم.

وفي نصِّ (عباس) يذكر أن عبّاس منذ سنين الفتح يلمِّعُ سيفه وشاربه، وهذا يوحي بمدى الاهتمام الظاهر لدى عباس بمظهره ومظهر استعداده "الوهمي" للحرب.

كذلك، حلول الضيف العدو ببيت عباس وتقديم عباس القهوة له، مبالغة توحي بمدى تخاذله وذلته أمام هذا العدو الذي ابتلع ضفته واقتحم داره.

وفي استغاثة زوجة عبَّاس وتجاهله لها أيضًا مبالغة معبرة عن قلة نخوته، كذلك عروبته الزائفة.

وفي نص (مزايا وعيوب) نجد المبالغة في وصفِ مدى قذارة الكلب من رجليه إلى كتفه، معبِّرة بسخريةٍ عن فساد أولئك المتسلقين المتملقين.

ثالثًا: التأكيد :

إن الشاعر استخدم في مواضع السخرية المذكورة مؤكداتٍ عدة، عمّقت أث تلك السخرية في نفس القارئ، من ذلك:

أ ــ (أن، إن) أنّ السكوت من ذهب، وأنه حرضني على الشغب، سيدي إني حزين.

ب- (التكرار) :

ـ تكرار النداء "عباس، سيدي".

- تكرار جملة "يصقل سيفه".

ج- تقديم شبه الجملة:

- " فيك عيبان"، "ليس عندي أي دين".

رابعًا: التنوع بين الخبر والإنشاء:

فنص "قلة أدب" أسلوبه خبريٌّ بالكامل، بينما نص "حكاية عباس" اشتمل على الأسلوبين ببراعة فنجد الخبر في:

عباس وراء المتراس، يلمع سيفه، بلع السارق ضفة، قلب عباس القرطاس، لملم عباس ذخيرته.... إلى آخر هذه الأساليب الخبرية المقررة لحقيقة عباس والمؤكدة على تناقض طباعه.

ثم تأتي الأساليب الإنشائية في:

النداء في:

صرخت زوجة عباس:

ضيفك راودني.. عباس؛

أبناؤك قتلى عبّاس..

والأمر والنداء في:

قمْ أنقذني يا عباس.

الاستفهام والنداء في:

ـ فلمن تصقل سيفك يا عباس؟

والأمر مع النداء أيضًا في:

اصقل سيفك يا عباس.

وهذا التنوع بين الخبر والإنشاء يؤدي الغرض البلاغي من كل نوع من الأساليب، سواءً بتقرير المعنى على أنه حقيقة أو تأكيد التهكم كما في (اصقل سيفك يا عباس)، أو الاستغاثة في (قمْ أنقذني يا عباس)، أو التنبيه في النداءات المختلفة. وكلها ساعدت على إبراز عنصر السخرية بشكل مؤثر وجميل.

الخاتمة:

ومن هنا نجد أن الشاعر أحمد مطر قد استخدم السخرية كسلاح هجومي أحسن استعماله ظاهرًا وباطنًا في عبارات والتفاتات ذكية كانت سلاحه في مواجهة الواقع وتناقضاته خاصة مع الحكام العرب في حل قضايا المواطن العربي المُثقل كاهله بالهموم والمعاناة.

لذلك كانت السخرية في شعر أحمد مطر وليدة الأزمة وما يسود الواقع العربي من تناقضات ومفارقات تتنافى وآمال المواطن العربي كما كانت لهذه السخرية قدرة عالية على الإفشاء والفضح وتشويه الصورة.

المصادر والمراجع:

- أحمد مطر، الأعمال الكاملة لأحمد مطر لافتات، الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- السيد عبد الحليم سليمان، السخرية في أدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر، طرابلس ط١، (د: ت)
- مجمع اللغة العربية، معجم مصطلحات الأدب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار التوفيقية، القاهرة، ١٩٧٨.